# بين معرفة وتربية... تمرين في القراءة

جمال ضاهر

ويزيدك عمْق الكشْف غُموضاً . . فالكشْف طريق عدميّ .

مظفّر النّوّاب – وتريّات ليْليْة

## نافذة. تطلّ على المشْهد يتكسّر

مُحاولة الكشْف النّاتجة عنْ رغْبة الإدراك والخطيئة، والمُنْتجَة بدوْرها لانْفصال الإنسان عنْ ذاته، وعنْ خارجه وعنْ تُرابه . . . دخلتْ في نشْوة الوعْي للوعْي، وسارت نحْو المجْد السّماء .

في الطّريق، بدأتْ تُميِّز تُصنِّف تُؤطِّر الحياة بيْن الخارج بيْن الدّاخل، جاعلة من الوجود الكلّيّ بعْثرة قوْم في شتات . . . مُسْتمرة بانْغماس جزّار، تُقطّع أوْصال الجُثّة، تُصنّف ألْوانها بيْن أفْكار بيْن مشاعر، بيْن معارف بيْن تجارب، وأنْواع وجواهر وميزات وصفات وصور .

وحركة ديْمومة وأسْباب .

المَوْجودات الزّائلة رماداً، تُحاول تجْمع ذاتها، تُحاول تكون صورة . . .

جلستْ أسْفل الهرم، والأفْكار، المُثل أخذتْ مكانتها أعْلاه .

وكان الزّمن قدْ بدأ يسير .

مُحاولة الكشْف المُنْتجَة للتَّمزُّق للقلق، للتّيه بيْن ثنايا الأجْزاء في خطّ التّجْزيء . . . فقدتْ طريقها وشمْسها في غُرْبة الضّياع . ومنْ هوْلها، بدأ حديثها عن الضّوْء الحقيقة يسير نحْو الإطلاق في المُطْلق، والصّور الأشْكال بدأتْ تَأخذ ألْوانها من الواحد .

الأحد .

يوْم الأحد، أو الجُمعة أو السّبْت، يوْم راحة الرّبّ .

وأهْل الكهْف ناموا ثلاثمائة من السّنين .

واستيقظوا .

على بُطْئهم كان اسْتيقاظهم، يَتملْملون يُحاولون اسْترْجاع بصرهم . . .

والضّباب منْ حوْلهم يُحيطهم والكوْن، يتراكم فوْقهم غُبار خطوط .

نظروا منْ حوْلهم والصّور الغُبار تُغلّفهم نسيج وعنْكبوت، نظروا يُحاولون تبْيان المعالم تبْيان الطّريق، نفضوا رؤوسهم نفضوا أجْسادهم . . . والصّور صور والغُبار غبار والخُطوط خُطوط . حاولوا بأرْجلهم حاولوا بأيْديهم أصابعهم، غرسوا أظافرهم . . . لا شيء سوى سيْل دماء يتخثّر، يُغْلق منافذ ما بيْن الخُيوط .

وبدأ الحديث عن النّسْبيّة وعن السّببيّة الاحْتماليّة وعن الضّرورة المُمْكنة وعن المُصادفة وعن المسارات المُتعدّدة . . .

والغُرف القشّ تتكاثر .

غُرْفة للشّروط، غُرْفة للحَدَث، غُرْفة للوعْي، غُرْفة للاوعْي، وأخْرى للفعْل، غُرْفة للّسان غُرْفة للّغة وغيْرها للقوْل، للمُتَلَفِّظ منْ غيْر تَلَفُّظ المُتَلَفِظ . . . مُكْملين مُجْهزين على الباقي المُتبقّي منْ بقايَاهم، جاعلين جلْدَهم نُتفاً تتطاير ذرّات رمْل في صحْراء يعْصف الرّيح بها منْ تحْتها .

منْ فوْقها منْ أرْبع جهاتها .

ذاته الإنسان، وأناه وسيْرورته صيْرورته . أرْبعة .

أرْبعون . أربعمائة وخمسون غُرْفة .

معْرفة وترْبية . خمْسة آلاف فوْق سطْح مُسطّح .

واحد وواحد وواحد وواحد

وواحد .

والواو تجْمع ما بيْنهم .

واو تدلّ على الجمْع، واو تُشير إلى فُتات .

والأفق خطّ أفقيّ .

لا عمْق لا تضادّ لا تناقض لا تصارع لا صراع : الواحد لا يحْمل في الدّاخل ضدّه .

الواحد، لا يحْمل في الدّاخل سواه .

وحْده الواحد المُمْعن في التّسطّح وضوحاً، فوْق متاهة الواو الغائبة الحاضرة، يرْكب يتكاثر . . . والزّمن يُرافقه، ثامنه .

## نافذة. تطلّ على النّضْج يتعفّن

ليْس بإمْكان الواحد أنْ يتعفّن نُضْجاً، ليْس بإمْكانه .

أو أنّه بإمْكانه . . . ينْضُج يتعفّن، عبْر الزّمن الآتي خطّاً من الأزل .

فخطّ الزّمن، كما الأفق، يسير إلى الأمام نحْو الأبد . . . وعبْره تحْدث الأحْداث . هكذا ما زال يُقال . تكون الولادة ومنْ بعدها النّضْج ومنْ ثمّ الممات .

لا حوْل لا قوّة للمكان سوى داخل الزّمن . عبْره .

بعْد أنْ كان الزّمن وليد المكان، بدأ يكون أباه . . . هكذا فعل الإنسان مع

أمّه، هكذا فعل مع ربّه.
ذات القصّة: يخْرج الطّفْل منْ رحْم أمّه ليُعين أباه في حقْله، يتحوّل يتغيّر تتراكم قوّته... يعْجز الأب فاقداً جبروته، ويبْدأ لا يتحرّك إلا وعصاه، ابْنه، بيْن يديه.
ذات التّفاصيل ذات الحدث: خرج الزّمن عن المكان ليُعين الإنسان في يوْمه، تحوّل تغيّر تراكمتْ قوّته، أخذ استقلاله وحداته. عجز المكان أمامه، وبدأ لا يتحرّك إلا والزّمن، ابْنه، يُرافقه... حتّى أنّه بعْد حين أخذ المسار وأخذ الطّريق، وأفْعال المكان أصْبحت لا تُدْرك إلا منْ خلاله.
ولادة، نُضْج، ممات.
والدّيدان تنْتظر حُدوثها.
الواحد آخذ في التّسطّح وعْياً ورغْبة. ليْس الْتباساً ليْس خطأً. ذاكرة قصيرة.
أوْ غضّ نظر:
دوْرة الكرة الأرْض على محاورها حوْل الشّمْس، سيْر الكواكب دوراناً في فضائها... حركتها تناسُجها: ضوْء ظلْمة. ليْل نهار. يوم واحد. سنة. ثلاث آلاف. دورات الكرة على محاورها حوْل الشّمْس.
والتّناسج، منْ طبيعته، طبْع تأثيره فيه كما في غيْره.
تتناسج تتناتج. تتحوّل تتراكم. تتغيّر. ليْس في خطّ أفق. حيْث أنّها.
نُقْطة، لا تعْلو لا تهْبط إلى أسْفل، لا تسير إلى الأمام، في مكانها حركتها.
نُضْجها تَعفّنها: نوْع علاقاتها داخلها في صيْرورتها، ليْس إلا.
حالة النّضْج طوْر منْ أطْوار التّعفّن في صيْرورته.
تناقضيّة الحالات حالة الوجود.
أبداً لمْ أرْغب سوى الإشارة إلى غياب التّناقضيّة عنْد اعْتماد الزّمن لوصْف الحالات الوجوديّة. إنْ أردْتم، لمْ أحاول سوى الإشارة لضرورة التّخلص منْ مركّب الزّمن منْ أجْل الوقوف على تناقضيّة الحالات الوجوديّة في عمْق النّقْطة.
وهنا، عليّ التّنْويه بأنّ غياب مُركّب الزّمن عنْد التّفْسير، هو تفْريغ للواحد، بوصْفه صيغة مُسطّحة، منْ كلّ معانيه. إذ لا وجود للواحد إلا داخل الزّمن الذّاهب أفقاً.
إلْغاء الزّمن وتفريغ الواحد، شرْط اسْترْجاع التّناقضيّة. الكليّة الوجوديّة. وشرْط حذْف الواو المرْكوبة.
منْ طبيعة الواو أنْ تحْني رأسها أمام الرّكْب. الجمْع المُسافر.
بإمْكاننا الإبقاء على مُركّب الزّمن منْ أجل تنْظيم فعْل الجنْس بيْن الأزْواج، أوْ... منْ أجْل ترْتيب فعْل القتْل، فعْل إجْهاض الجنين أو الإجهاز على الشّعوب.
وبإمْكاننا الإبقاء عليْه منْ أجل الاحْتفاليّة بحدث الموْت.
الولادة.
بإمْكاننا الإبقاء عليْه داخل حدود الفعْل الجمْعيّ الاجْتماعيّ، ليْس لأنّنا لا نسْتطيع منْ دونه بلْ احْتراماً لمجْهود الإنسان، لأرقه في الليْل يهْذي يُفكّر في تنْظيمه حياة عبيده. أبْيض وأسْود.
مُذكّر مُؤنّث.
حتّى أدقّ التّفاصيل.
فهو الإنسان ليْس بوسْعه أنْ يتخلّى عنْ أسْلحة الحفاظ، عُنْفاً مُذوّتاً، على أفقيّة السّطْح. ففي عمْق النّقْطة، حيْث الجوْهر صراع، ليْس بإمْكانه أنْ يهْوي بقبْضته فوْق رأسه، ليْس بإمْكانه أنْ يُحْكم طوْقه حتى حوْل أناه وجيده؟
فعْل توْليد الزّمن، دلالة على حدّة الرّغْبة عنْد الإنسان بالتّخلّص منْ عمْقه، منْ تناقضيّة ذاته، كحالته... وهو دلالة على عبْقريّته بامْتياز... مع (ال) التّعْريف. إذْ أنّه نجح، ليْس فقط في تسْطيح ذاته بذاته وليْس فقط في الحفاظ على تسطّحه حتى "اليوْم"، بلْ أيْضاً في تعْميق إيمانه بعُمْق تفْكيره!
اسْترْجاع الحالة الأوّليّة تتطلّب التّنازل عنْ موْقع الامْتياز وعنْ (أل) التّعْريف المُتّصلة بالعبْقريّة الإنسانية... في غمْر التّسطّح.
اسْترْجاع الحالة الأوّليّة تتطلّب التّفْكير بالانْفعاليّة الجماليّة الحادثة داخل الحركة الرّتيبة، النّقيّة من الشّوائب... وتتطلّب الجلوس طويلاً للحوار حوْل مفاهيم عميقة الجذور في لغة الفهْم.
قدْ نرى الحياة غيْر ما نراها وقدْ يكون أجْمل.
ربّما؟

## نافذة، تطلّ على الصّورة تتكوّن...

بعْد حذْف الواو وبعْد تفْريغ الواحد منْ حمولته، بعْد التّخلّص منْ مُركّب الزّمن وبعْد الوقوف على وجود التّناقضيّة، ماذا يتبقّى أمامنا أنْ نفْعل؟
لا شيْء، تقْريباً، يُذْكر؟
أبْدأ القوْل بأنّي أنْوي اسْتبْدال الاسْم مَعْرفة بالفعْل يَعْرف، لكوْنه يحْمل داخله دلالة على يحْدث يتحوّل يتراكم يتغيّر. والحدوث، على غرار التّلفّظ، يحْمل من المعاني كلّها. ليْس أفقيّاً، بلْ في ذات أبْعاد النّقْطة. في عُمْقها.
يحْدث الفعْل يَعْرف، ضمْن عمليّة التّناسُج التّناتُج داخل ما أسمّيه بالحدود القسْريّة، المُتّصفة بالتّناقضيّة.
أقْصد القوْل، إنّ حدوث الفعْل يعْرف لا يكون إلا ضمْن عمليّة التّناسُج التّناتُج وفي حدودها.
يُتناسج يتناتج... ذاته تتراكم تتحوّل.
ويَعْرف.
فهي الذّات تَتحوّل حيْث أنّها. **هُنا**.
يَعْرف، تُشير إلى الذّات تتحوّل في تناقضيّتها في كلّيّتها.
**هنا**، للتّوْضيح أقول، تُشير ليْس إلى المكان، بل إلى حالة التّناسج التّناتج في تحوّلها. والمكان، مُتضمّن داخل **الهُنا** كصيغة تَتحدّد بما يتلاءم معها. وبوصْفه كذلك، فهو ليْس واحد: الإشارة إلى مكان، مُسْتعْملين كلمات مثل هذا وهذه وذاك وهناك، هي إشارة مجازيّة ليْس لها دلالة مُشْتركة واضحة ومُحدّدة.
**الهنا**، تتضمّن خارجها كصيغتها ضمْن تناسُجها تَناتُجها.
كما أنّها.
يَعْرف، على هذا، تتحدّث عنْ **هُنا** يَعْرف ويُعْرف ضمْن تناسُجه تناتُجه مع **هُنا** آخرين.
حُدود فضاء **الهُنا** هي الحدود القسْريّة الخاصّة بها، والتي بها تفْعل جميع أفْعالها: حدود **الهُنا**، سجْنها.
يعْرف، بوصْفه فعْل يَحْدث ضمْن حدود سجْنه، فهو مُحدّد، ليْس فقطْ في مضْمونه، بل أيْضاً في صياغته.
يعْرف... لا يعْرف.
أي أنّه الإنسان يعْرف ويُدْرك في تناسجه. كما أنّه.

"هذا"، تُشير إلى صيغة الهو كما هي عنْد **الهُنا**.
"هذه"، تُشير إلى صيغة الـهي.
من **هنا** أهميّة الحذر عنْد التّلفّظ، أيّاً كان المُتلفِّظ وأيّاً كان المُتلفَّظ.
لسْتُ، بهذا، أقول إنّ فرْدانيّة **الهُنا** مُطْلقة، بمعْنى أنّها لا تحْمل من المُشْترك، أو المُتشابه، ما يُمكّنها من الحوار مع غيْرها.
لمْ أقْصد هذا.
ما أردْت تأكيده هو وجود الآخر، والذي يمْنع، من المفْروض، حتى إمْكانيّة صياغة الفهْم الواحد... وعنْدما، بالرّغم، تتكون صيغة الواحد المُفْرد، فهي تأتي على حساب الاخْتلاف.
تشكّل الواحد، صياغته، ودخوله إلى الفضاء المُعاش، يُدْخل الفرْدانيّة، إلى حيّز العدم.
سيادة الواحد لا تعْني خُنوع الفرْدانيّة، لا تعْني خُضوعها أمام الواحد، بلْ جذّ صوفها بعْد قطْع رأسها من الذّنب.
جمال الفكْرة في كوْن المُبْتكَر سيّد المُبْتكِر! وجلاده!
للتّأكيد، لا تقْتصر بشاعة المشْهد على تأكيد الفهْم الواحد، بل تمْتدّ لتتضمّن تحْديد صياغة الفهْم. والتّخلّص منْ مشْهد القتْل لا يكون بتأكيد فرْدانيّة الإدراك، بل أيْضاً بتأكيد فرْدانيّة صياغته.
صيْرورة بنْية الفهْم، فعْل صياغته.
وعنْدما صيْرورة البنْية تكون واحدة، تَعدُّد الأفْكار، لا يُشير إلى التّعدّدية.
أوْ أنّه يُشير، ولكنْ ليْس إلى الغيْريّة، ليْس إلى غيْر القابع في حدود الفضاء المُغْلق. والحوار حدّ النّقاش وحتّى الاقْتتال، لا يتعدّى الغصّة بيْن عاشقيْن... تزول مع زوال أسْباب الغضب.
أوْ، مع ارْتعاشات الجسد.
ليْس الاخْتلاف بيْن وجهات النّظر ما يُحدّث عنْ حدثيّة الحدث بعلاقاتها مع **الهُنا** الفرْدانيّة بطبيعتها، كما الغرْب الفخور بفضائه يعْتقد.
ليْس الاخْتلاف بيْن وجهات النّظر ما يُحدّث عنْ الغيْريّة، والصّياغة الواحدة، وإنْ تعدّدت المقولات، لا تشير إلا إلى السّلْطة الواحدة.
ليبراليّة وديمقْراطية وملكيّة ودكْتاتوريّة وفاشيّة...
وطريقة كتابة علْميّة.
ومعْرفة.
مُمارسة الاخْتلاف، بمعْنى الغيْريّة، يكون في كسْر الأفق وتمزّق الأزْرق عنْد طيْر البجع المُهاجر.

## نافذة، تطلّ على داخلها...

كانُ الكوْن صَغيراً
كانَ يحْبو على أرْبع... ويدور كأنّه تُفّاحة خضْراء
وحياة تسير كما لوْنها وأزْرق يمْتدّ سماء
والزّرْقة بحار
وحيتان تقْذف داخلها
ويونس.
وفي يوْم من الأيّام، عنْدما السّماء كانتْ أزْرق ممْزوجاً بأحْمر، والشّمْس في طريقها كانتْ تسير... أشْجار صغيرة نمتْ أغْصاناً وأخْضر وعصْفور بدأ يُحاول يطير.
وثلاثة أطْفال خرجوا إلى الحقول يلْعبون.
نحْن كنّا الأطْفال.
وكنّا بحجْم الكوْن كما طوله
كنّا أبْعاده.
وكنّا حقوله المُمْتدة أشْكالاً
وألْوانه.
كنّا جماله كنّا أحْداثه.

**جمال ضاهر**
**روائي فلسطيني – الناصرة**

## المراجع


- ناشف، إسماعيل. **حديث**، 1998.
- ناشف، إسماعيل. **تبعثر**، 1996.
- ضاهر، جمال. **عند حضور المكان**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2000.
- ضاهر، جمال. **وأضحى الليل أقصر**، دار الآداب، 2005.
- بركات، نجوى. **لغة السر**، دار الآداب، 2006.
- فني، كفاح. **معالجة الفراغ**، 2004.
- النواب، مظفر. **الأعمال الشعرية الكاملة**، دار قنبر، 1996.
- زعبي، منار. **الخيار الأخير – أسود**، معرض بيت الكرما، 2006.
- زعبي، منار. **بين بين**، صالة العرض للفنون في أم الفحم، 2006.
- زعبي، منار. **عرض تمثيلي**، المركز الرقمي، 2004.

تلميذ في غرفة صفه الخالية من زملائه بسبب إضراب المعلمين. (عدسة: وكالة "معاً")